

الجولان: شهادات نازحين عن أيام الحرب والحاضر¹

إعداد: صقر أبو فخر

كان الجولان، قبل احتلال إسرائيل له في حرب حزيران/يونيو 1967، مثلاً للتنوع الإثني والطائفي في سورية. فعلى أرضه عاش، بوائم، الشركس والتركمان والأكراد والأرمن والعرب، وازدهر التسامح والتدامج بين مختلف طوائفه، كالسنة والمسيحيين والدروز والعلويين والإسماعيليين والشيعية، فكأن الجولان صورة مصغرة لسورية التقليدية التي خرجت من تحت أنقاض الإمبراطورية العثمانية وانبثقت، كدولة حرة، مع الملك فيصل الأول، ودشنت، بقيادة سلطان الأطرش، ثورتها الكبرى ضد الانتداب الفرنسي بشعار: "الدين لله والوطن للجميع".

سقط الجولان في 9 حزيران/يونيو 1967. ولم يكد يمضي شهر واحد فقط حتى كانت الجرافات الإسرائيلية تباشر تدمير القرى العربية ومحو معالمها عقب رحيل السكان نحو المناطق غير الخاضعة للاحتلال.

وصل عدد سكان الجولان، في سنة 1967، إلى نحو 153.000 نسمة، بينهم نحو 9000 من اللاجئين الفلسطينيين. وبلغ عدد القرى فيه 163 قرية، فضلاً عن 108 مزارع. وسيطرت إسرائيل في الحرب على 139 قرية و61 مزرعة كان يقطن فيها نحو

¹ أجريت المقابلات في كانون الأول/ديسمبر 1999.

130.000 نسمة. وفي الإثر بادرت القوات الإسرائيلية إلى تدمير هذه القرى تبعاً، فلم يبق منها إلا 6 قرى هي: مجدل شمس ومسعدة وعين قنية وبقعاتا وسحيتا والغجر. وفي سنة 1970، دُمرت قرية سحيتا وصودرت أراضيها ووُزِع سكانها على القرى الأربع الأولى، ونزحت أعداد منهم إلى دمشق. وخلال شهر واحد لم يبق في الجولان، من الـ 130.000 نسمة، غير 6396 شخصاً بينهم 5675 شخصاً من سكان القرى الأربع (دروز وبضع عائلات مسيحية)، و521 مواطناً من قرية الغجر (علويون)، ونحو 250 مواطناً مدنياً ظلوا في مدينة القنيطرة (مسلمون وبعض المسيحيين). وبعد شهر واحد فقط من الاحتلال، وبالتحديد في 10 تموز/يوليو 1967، أعطى حزب العمل الإسرائيلي إشارة البدء لاستيطان الجولان. ولم يطل الأمر حتى جرى في الرابع عشر من الشهر نفسه وضع حجر الأساس لأول مستعمرة في الجولان هي ميروم هغولان. ومنذ ذلك الوقت، ازداد عدد المستعمرات حتى وصل إلى نحو 34 مستعمرة يقطن فيها نحو 17.000 مستوطن.

تناثر النازحون، بعد حرب حزيران/يونيو 1967، في أمكنة شتى، وانتشروا بين مدينة درعا في الجنوب ومدينة حمص في الشمال، وسكن بعضهم في القرى القريبة من الجولان، مثل سعسع وقطنا. وبينما أقام كثيرون بالقرى المجاورة لدرعا، مثل المزيريب وإزرع وتل شهاب، تركز معظم النازحين في مدينة دمشق وأحيائها وضواحيها. يقدر عدد النازحين من أهالي الجولان، اليوم، بنحو 350.000 نسمة، فضلاً عن عدد غير محدد من الدمشقيين والموظفين الذين كانوا يقطنون في الجولان قبل سقوطه. ويعاني النازحون، في معظمهم، مشكلات متعددة الوجوه. وأحد وجوه هذه المشكلات المسألة السكنية؛ ففي المخيمات، مثل مخيم الوافدين، تعيش أربع أسر في الشقة الواحدة.

واليوم، ربما صارت العودة قريبة الإمكان. لكن دون هذه العودة مشكلات لا حصر لها. فالقرى مدمرة كلها، ومعالم الأرض تكاد تمحى، وحدود الملكيات تحتاج إلى من يعيد تكوينها، فضلاً عن أن عودة النازحين تحتاج، قبل أي شيء آخر، إلى إنشاء المدارس والمستشفيات، وإقامة المؤسسات الضرورية، وتنظيم الإدارات المختصة، وبناء شبكات جديدة للطرق والكهرباء والماء والهاتف، ومعالجة أوضاع السكان الذين عاشوا تحت الاحتلال مع توفير فرص العمل لهؤلاء جميعاً. وهذه مهمة صعبة ومتشابكة، وتتطلب أموالاً وجهداً وزمناً كافياً. وإلى أن تصبح العودة ممكنة حقاً، يواصل النازحون حياتهم اليومية بالمعاناة نفسها وبالقلق نفسه وبالترقب الذي لا ينفك يزداد في كل يوم.

* * *

بين قرية مرج السلطان الواقعة شمالاً على طريق دمشق . حمص، ومحلة القدم الواقعة جنوباً على طريق دمشق . درعا، وخلال كانون الأول/ديسمبر 1999، أُتيح لي أن ألتقي عدداً وافراً من النازحين في مختلف أماكن تجمعهم وشتاتهم. التقيتهم في مخيماتهم وفي منازلهم وفي أماكن أعمالهم، وخضتُ في أزقة أحيائهم، والتمستُ، وأنا أتكى على الوسائد في بيوتهم المتواضعة، أن أعثر على قصص مترعة بالوجد والحزن والترقب والتحفز.

لم تتعب الشفاه من الحكى والقص وإعادة الرواية، ولم تكف الذاكرة لحظة عن استحضار الوقائع بقوة وحرارة. روى، جميعاً، حكاية العيش في الجولان والحنين الدائم إلى وطن تناءى كثيراً وقصة النزوح القاسي الذي طال ثلث قرن بالتمام. ومن عشرات القصص اخترت عينة محددة من هؤلاء الذين عاشوا تجربة النزوح والغربة واختزنوا

تفصيلاتها. ولعل هذه الشهادات تكون أصدق تمثيلاً للتنوع الإثني والتعدد الديني والاختلاف الاجتماعي.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>